أقره السابقون فى هذا المجال. بل يكاد يتفق مع القاضى عبد العزيز الجرجانى لفظاً ومعنى إذ يقول:

(ولهذا السبب أحظر على نفسى، ولا أرى لغيرى بت الحكم على شاعر بالسرقة ... إلا أنى إن وجدت فى شعره معانى كثيرة أجدها لغيره حكمت بأن فيها مأخوذاً لا أثبته بعينه، ومسروقاً لا يتميز لى من غيره [1]).

هذا. ومما يتفرع عن المحاكاة والانتحال بين الأدباء فنون أخرى يحسن بنا الإلمام بها لما لها من قيمة فى ميزان النقد والبلاغة. وتلك الفنون هى:

الاقتباس – التضمين – العقد – الحل – التلميح. فإلى هناك والله يرعاك.

* * *

الاقتباس

القبس فى اللغة: الشعلة من النار. والاقتباس مصدر الفعل: اقتبس. ومعناه: استفاد أو استنار. وعلى كل فهذا اللفظ يتضمن أمرين: آخذ وهو المقتبس. ومأخوذ منه وهو المقتبس منه.

وخص البلاغيون الاقتباس بأن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو السنة الشريفة لا على أنه منه.

والصلة بين المعنى اللغوى والمعنى البلاغى ظاهرة لأن المقتبس لشئ منهما فى كلامه مستفيد بما اقتبسه. مستضئ بذلك المقدار الذى وضعه فى كلامه من آيات القرآن أو أحاديث النبى عليه السلام والاقتباس بهذا المعنى وقع فى الشعر والنثر. فمن وقوعه فى الفعل قول الحماسى:

إذا رمت عنها سلوة قال شافع ... من الحب ميعاد السلو المقابر
ستبقى لها فى مضمر القلب والحشا ... سريرة ود يوم تبلى السرائر

---

(١) الوساطة ص٢١٥ ط الحلبى.

فقوله ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ آية من سورة الطارق . ومن وقوعه فى النثر قول الحريرى صاحب المقامات :

(هنا لك يرفع الحجاب . ويوضع الكتاب، ويجمع من وجب له الثواب وحق عليه العقاب . فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) .

فقوله : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم ﴾ . . . مأخوذ من سورة الحديد، وهو جزء الآية رقم ١٣ منها .

وفى كل موضع يكون فيه اقتباس من القرآن الحكيم فإنك تهتدى إلى إدراكه فى غير عناء . وذلك لما امتاز به كلام الله من خصائص فى اللفظ والمعنى ليس لها مثيل فى كلام الناس . لذلك تجده فريداً وضيئاً يتألق فى شموخ بين ما أزدان به من كلام .

وقال الأبيوردى :

وقصائد مثل الرياض أضعتها فى باخل ضاعت به الأحساب

وإذا تناشدها الرواة وأبصروا المدوح قالوا : (ساحر كذاب)

فقد اقتبس الشاعر قوله تعالى : ﴿ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ وهو فاصلة الآية رقم (٢٤) من سورة غافر .

وقال آخر :

خلة الغانيات خلة سوء فاتقوا الله يا أولى الألباب

وإذا ماسا لتمونهن شيئا فاسألوهن من وراء حجاب

اقتبس الشاعر قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ من الآية رقم (٥٣) من سورة الأحزاب .

وقال آخر :

إن كنت أزمعت على هجرنا من غير ما جرم فصبر جميل

وإن تبدلت بنا غيرنا فحسبنا الله ونعم الوكيل

وقال أحد المغاربة فى رثاء صديق له:

قد كان ما خفت أن يكونا أنا إلـــى الله راجعـــونا

وقال بديع الزمان الهمذانى يمدح قوماً:

إذا ما حللت بمغناهم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً

ومن ذلك قول الآخر يهجو ويذم:

لا تعاشر معشراً ضلوا الهدى فســـواء أقبلوا أم أدبـروا

(بدت البغضاء من أفواههم والذى يخفون منها أكبر)

ومواضع الاقتباس وصوره غير خاف عليك أمرها فى النصوص الثلاثة وقال ابن الرومى:

لئن أخطأت فى مدحيك ما أخطـــأت فى منعى

فقد أنزلـــت حاجـاتى بـــواد غيـــر ذى زرع

وقال عمر الخيام:

سبقـــت العالمين إلى المعالـى بـصـــائب فكـــرة وعلو همه

ولاح بحكمتى نور الهـدى فى ليـــال للضـلالة مدلهمـــه

يريـد الجاهلـــون ليطفئـــوه ويأبـــى اللـــه إلا أن يتـــمه

ابن الرومى اقتبس قوله تعالى ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ وعمر الخيام اقتبس نصاً لكنه لم يلتزم فيه حرفية النص كما ترى. وذلك أمر بعضهم قد تسامح فيه أن دعا إلى ذلك المحافظة على الوزن وغيره [1]. واشترطوا لجواز هذا التسامح أن يكون يسيراً وإلا فلا.

والأولى بالاعتبار عدم الترخص فى النص القرآنى بالتغيير والتبديل لا مراعاة

---

(١) راجع شروح التلخيص حـ٤ ص٥١٣ وغير الوزن هو استواء القرائن فى النثر.

لوزن ولا لقرينة سجع. لأنه فى الاقتباس وغير الاقتباس فيه انتهاك لحرمة النص القرآنى الواجب الالتزام بصورته كما أنزل. وهو نوع من التحريف وإن حسنت معه النية ونبل المقصد فإنه لا ضرورة تقتضيه. فعلى مريد الاقتباس من القرآن الحكيم أن يطوع ضيع كلامه هو لتتسق مع النص القرآنى المقتبس وإن تعذر عليه ذلك فلن يلحقه من ترك الاقتباس – وهو أمر جائز فى السعة – ما سوف يلحقه من التصرف فى النص المقدس الواجب السلامة.

أما التصرف فى الحديث النبوى من أجل الاقتباس فجائز، لأن العلماء جوزوا رواية الحديث بالمعنى ولم يجوزوا ذلك فى نصوص القرآن الحكيم.

وعلى هذا جاءت الآثار الأدبية فى الاقتباس من الأحاديث الشريفة ومن ذلك قول الشاعر:

قال لى : أن رقيبى سئ الخلق فداره
قلت : دعنى وجهك الجنة حفت بالمكاره

فقد اقتبس الشاعر قول الرسول عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وقال القاضى الأزدى [1]:

فلو كانت الأخلاق تحوى وراثة ولو كانت الآراء لا تتشعب
لأصبح كل الناس قد ضمنهم هوى كما أن كل الناس قد ضمهم أب
ولكنها الأقدار كل ميسر لما هو مخلوق له ومقرب

فقد اقتبس الشاعر حديث الرسول عليه السلام وهو قوله: (كل ميسر لما خلق له):

وقد تصرف الشاعران فى لفظى الحديث المقتبس كما هو واضح.

نوعا الاقتباس :

قسم البديعيون الاقتباس إلى قسمين : أحدهما ألا ينقل فيه اللفظ المقتبس

---

(١) هو القاضى منصور السهروى الأزدى.

من معناه الذى ورد فيه إلى معنى آخر. ويقع تحت هذا القسم كل الأمثلة المتقدمة ماعدا نصين.

وثانيهما: أن ينقل فيه اللفظ المقتبس من معناه إلى معنى آخر. ومنه قول ابن الرومى السابق: لقد أنزلت حاجاتى ... وهو أحد النصين المشار إليهما آنفاً..

لأن قوله تعالى: (بواد غير ذى زرع) مقصود به حقيقة الوادى. فأخرجه ابن الرومى إلى معنى مجازى على التمثيل. حيث شبه من كان يمدحه بالوادى القفر من الزرع والماء لأنه بخيل منوع. ومن الحديث قول الشاعر الذى سبق: قلت دعنى وجهك الجنة .. فإنه فى الأصل وارد فى الجنة المعهودة فأخرجه الشاعر إلى معنى آخر على طريق التشبيه البليغ فاستعمله فى العزل كما ترى.

* * *

التضمين

التضمين في اللغة الاشتمال تقول ضمنت الكلام كذا يعنى جعلت الكلام حاوياً له ومشتملاً عليه.

أما فى اصطلاح البلاغيين فهو: أن يضمن الشعر شيئاً من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء.

فإذا أنشأ شاعر قصيدة ووضع فيها أقوالاً من شعر غيره أو شعر نفسه من غيرها سمى هذا العمل تضميناً. فإن كان النص المأخوذ مشهوراً عن قائله، ومعروفاً أنه لغير المضمن قامت تلك الشهرة بالإشارة إلى ما هو ذاتى للشاعر، وما هو منقول عن الآخرين. أما إذا جهل أمره، ولم يكن له من الشهرة نصيب فإن على الشاعر المضمن أن ينبه عليه – وإلا عد عمله سرقة وانتحالاً كما سبق.

فالتضمين عمل مشروع فى مجال الأدب لأن الشاعر المضمن لا يدعى أن ما ضمنه شعره هو. بل يأتى به لأغراض أخرى كالمهارة فى جعل قصيدته متناسقة

فى التأليف مع صياغات السابقين، أو يدعوه إلى ذلك الإعجاب بالقول الذى أخذه وأنه يوافق مؤلفه فيه صورة ومضموناً وأنه لو لم يسبق إليه لكان هو قائله، إلى غير هذا من الأغراض النبيلة.

أما السطو والسرقة والانتحال فإن الشاعر معها يخفى ويجتهد فى كتمان ما أخذه عن الغير ليمكن نسبته إليه فيحوز به الفضل. وهذا سلوك غير محمود فى شرعة الأدب وغيرها. ومن هذا صار التضمين مشروعاً والسطو محظوراً. ولهذا اشترط النقاد الإشارة إلى القول المأخوذ فى التضمين إن لم يكن مشهوراً ليدفعوا عن المضمن معرة الانتحال.

وقد نص السعد على أن صور التضمين ثمانى لأن المضمن – يعنى القول المأخوذ – إما أن يكون بيتاً كاملاً، أو مصراعاً. أو أقل من مصراع أو أكثر من بيت. فهذه أربعة. ومع كل حالة من هذه الحالات الأربع أما أن ينبه الشاعر إلى الأخذ، أو يترك التنبيه. فتكون الصور ثمانى. وقد اعترف بأن بعض هذه الصور لا وجود له. فهى إذن من باب التقسيم العقلى. أما المشهور من تلك الصور الثمانى فأربع فحسب وإليك التمثيل لها مع بيانها:

١– تضمين المصراع مع التنبيه. ومثاله قول الحريرى:

على إنى سأنشد عند بيعى أضاعونى وأى فتى أضاعوا

المصراع الأول للشاعر، أما المصراع الثانى فليس له. وقد نبه هو على ذلك بقوله (سأنشد) والمصراع المأخوذ من أبيات للشاعر العرجى هى:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

كأنى لم أكن فيه وسيطاً ولم تك نسبتى فى آل عمر

ب– تضمين المصراع مع عدم التنبيه: ومثاله قول الشاعر:

قد قلت لما أطلعت وجناته حول الشقيق الغض روضة أس

أعذاره السارى العجول ترفقن ما فى وقوفك ساعة من بأس

فإن المصراع الأخير من البيت الثانى معروف أنه لأبى تمام فى قوله:

ما فى وقوفك ساعة من بأس نقضى حقوق الأربع الأدراس

وترك التنبيه فيه راجع إلى شهرة قول أبى تمام شهرة تقوم مقام التنبيه:

جـ- تضمين البيت مع التنبيه . ومثاله قول الشاعر:

إذا ضاق صدرى وخفت العدا

تمثلت بيتاً بحالى يليق

فبالله أبلغ ما ارتجى ..

وبالله أدفع مالا أطيق

فقوله : (تمثلت بيتاً) دليل صريح على أن البيت ليس له وإنما لشاعر غيره قد سبقه إليه.

د- تضمين البيت بغير تنبيه لشهرته. ومنه قول الشاعر:

كانت بلهينة الشبيبة سكرة

فصحوت واستبدلت سيرة مجمل

وقعدت انتظر الفناء كراكب

عرف المحل فبات دون المنزل

لأن البيت الثانى مشهور أنه لمسلم بن الوليد الأنصارى.

وقد يجتمع التنبيه مع الشهرة فتكون فائدة التنبيه هى التأكيد. مثال هذا قول الشاعر أبى تمام:

كأنه كان محوياً على أحن

ولم يكن فى قديم الدهر انشدنى

أن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا

من كان يألفهم فى المنزل الخشن

مع قول الآخر :

والآن أقـــبلت الدنيـــا عليك بما

تهـــوى فـــلا تنسنى أن الكرام إذا

والتقدير : أن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا .. وليس هذا من تضمين البيت ولا المصراع كما ترى. وإنما هو من تضمين ما هو أقل من المصراع ويظهر لك هذا جلياً إذا قارنت بين بيت أبى تمام وبين هذه الإشارة التى قد ضمنها الشاعر بيته.

قالوا : (وأحسنه ما زاد على الأصل بنكته) يعنى أن أحسن التضمين ما زاد على القول المضمن بنكته. وذكروا لذلك أمثلة منها قول الشاعر:

إذا الوهم أيدى لى لماها وثغـــرها

تذكـــرت مـــا بين العـــذيب وبارق

ويذكـــرنى من قـــدها ومـــدامـــعى ..

مـــجـــر عـــوالينا ومـــجـــرى الســـوابق

هذان البيتان تضمناً مصراعى بيت هو مطلع قصيدة لأبى الطيب المتنبى وهو:

تذكـــرت مـــا بين العـــذيب وبارق

مـــجـــر عـــوالينا ومـــجـــرى الســـوابق

ومعناه : تذكرت ما بين هذين المكانين : العذيب وبارق مجر رماحنا وجرى خيلنا. لكن الشاعر زاد عليه فى النص المضمن تورية فى العذيب وبارق إذ لم يرد بهما المكان كما حدث عند أبى الطيب وإنما أراد بهما المعنى البعيد لهما وهو ماء الشفتين. وبريق الثغر. كما زاد علية التشبيه فى جعله تمايل قدها وجرى دمعه شبيهاً بتمايل الرماح وجرى الخيل.

ولا مانع فى التضمين من التغيير فى صيغة اللفظ المضمن ليتلاءم مع الكلام ومنه قول الشاعر:

أقـول لمعـشـر غلطوا وغـضـوا عن
الشـيـخ الرشـيـد وأنكروه
هـو ابـن جـلا وطلاع الـثـنـايـا
مـتى يضع العـمـامـة تعـرفـوه

فقد غير نظم البيت المضمن الذى هو :

أنـا ابـن جـلا وطلاع الـثـنـايـا
مـتى أضع العـمـامـة تعـرفـونى

حيث تحدث عنه بضمير الغائب بدل ضمير المتكلم. وهذا واضح لك.

* * *

العقد

العقد فى اللغة يدل على التوثيق والأحكام ومنه العقد بمعنى العهد والميثاق. أما العقد عند علماء البديع فهو: (أن ينظم نثر لا على طريق الاقتباس).

ومجال العقد ثلاثة أقسام :

أ – أن يكون النثر قرآناً.
ب – أن يكون حديثاً نبوياً.
جـ – أن يكون غيرهما.

وتصور هذه الأقسام الثلاثة فى العقد لازم، لأن تعريف العقد قد اشتمل على قيد هو (لا على طريق الاقتباس) وهذا القيد ملحوظ ضرورة عند نظم شئ من القسمين الأولين اللذين هما: القرآن الكريم، والحديث الشريف. لأن الاقتباس حاصل فيهما دون غيرهما.

أما إذا كان النثر المنظوم غير قرآن وغير حديث. فإن القيد لا اعتبار له لعدم وقوع الاقتباس فى غير القرآن والحديث.

وعقد القرآن أو الحديث مشروط فيه وجود شرط من شرطين. وهما: أن ينبه الشاعر على أن النثر الذى نظمه إنما هو من القرآن أو الحديث. أو يغير فيهما كثيراً. فإن لم يتوافر واحد من هذين الشرطين فنظم كل منهما اقتباس وليس عقداً.

ومن أمثلة العقد التى ذكروها من القرآن قول الشاعر:

أنلنى بالذى استقرضت خطاً وأشهد معشراً قد شاهدوه

فإن الله خلاق البرايا عنت لجلال هيبته الوجوه

يقول (إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه)

هذا . وقد نبه الشاعر إلى أن الكلام الذى نظمه من القرآن بقوله: (يقول) والفاعل هو الله تعالى.

أما نظم الحديث فقد مثلوا له بقول الشافعى رضى الله تعالى عنه:

عمدة الخير عندنا كلمات أربع قالهن خير البرية

اتق الشبهات وازهد ودع ما ليس يعنيك وأعملن بنية

فقد نظم الإمام الشافعى فى قوله هذا معانى أربعة أحاديث هى قوله صلى الله عليه وسلم: (الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور متشابهات من تركها سلم، ومن أخذها كان كالرائع حول الحمى يوشك أن يواقعه).

وهذا الحديث يقابل قوله:

(اتق الشبهات) الواقع فى صدر البيت الثانى.

وقوله عليه السلام: (أزهد فى الدنيا يحبك الله، وأزهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس).

ويقابل هذا الحديث قول الإمام (وازهد) فى حشو المصراع الأول من البيت الثانى.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (من حسن إيمان المرء تركه ما لا يعنيه).

ويقابل هذا الحديث قول الإمام: (ودع ما ليس يعنيك) الواقع فى عروض المصراع الأول وصدر المصراع الثانى من البيت الثانى.

وقوله عليه السلام: (إنما الأعمال بالنيات) ويقابل هذا الحديث قول الإمام: (وأعملن بنية).

وقد نبه الشاعر هنا على أن هذا الكلام نظمه من أقوال الرسول عليه السلام بقوله: (قالهن خير البرية).

وقال أبو العتاهية:

ما بال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر

نظم فى هذا البيت قولاً منسوباً للإمام على كرم الله وجهه وهو قوله: (مال ابن آدم والفخر، وإنما أوله نطفة، وآخره جيفة).

وقال أيضاً:

كفى حزناً بدفنك ثم أنى نفضت تراب قبرك عن يديا

وكانت فى حياتك لى عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

فقد نظم قول أحد الحكماء فى الاسكندر حين مات وهو: كان الملك أمس أنطق منه اليوم. واليوم أوعظ منه أمس، وحسبك هذه الأمثلة التى توضح لك هذا الفن وتجليه.

* * *

الحل

الحل لغة الفك والتفريق ضد العقد، وفى عرف البديعيين هو (أن ينثر نظم) وبعضهم يسميه: فك المنظوم، كما يسمى العقد نظم المنثور. وشرطه أن يكون سبكه مختاراً لا يتقاصر فى حسنه وجماله عن النظم الذى تضمن معناه. وبذلك يخرج الشرح المستفيض للنصوص الشعرية، لأن الحل أقرب إلى الوجازة منه إلى التطويل والإسهاب.